الزلة الأولى

للكاتب الفرنسي لامنيه

بقلم أحمد حسن الزيات

قطعة رائعة التمثيل جليلة المغزى للامنيه ، وهو علم من أعلام الادب الفرنسي ، وفيلسوف من فلاسفة المذهب الكاثوليكي ، وخطيب بليغ اللسان من خطباء الدين والسياسة ، ولد سنة ١٧٨٢ في بلد زعيم البيان الفرنسي (شاتوبريان) ، ثم طار في جوه ، فنشأ مثله لطيف الوجدان ، خصب المخيلة ، وثاب الفكر ، صحيح الرأي ، لا يخضع لنظام ، ولا يستكين لحادث . دخل الكنيسة راهبا ، ثم الجمعية العمومية نائبا ، فنصر الله في الاولى والحرية في الثانية . ثم صبا في سياسته الى الاشتراكية ، وفي عقيدته الى الارثوذكسية ، وحاول ان يقيم المسيحية على دعائم جديدة من الوضوح والبساطة . فلقي في سبيل هذه الآراء الحرة سخط البابا وغضب الكهنوت وعنت الساسة .

أما أسلوبه فخطابي شعري يعتمد على الصور الحية والتشابيه القوية ، ويسلك فيه مسلك (بوسويه) في احتذاء الانجيل ، واقتباسه منه أسلوب الرمز والتمثيل .

وهذه القطعة التي ننشرها اليوم تمثل شبق الانسان الى الشهوة البهيمية وحاله بعدها ، فمثل الشهوان كمثل الظمآن يتحرق الى اللذة الآثمة ، كما يتحرق هذا الى الكرمة اليانعة ، ودون هذه اللذة آثام وأجرام ووجس ، كالمستنقع الذي يحول بين الظمآن وبين عصير العنب . وهنا يتصارع العقل والهوى ، وتوازن النفس بين تتابة الوحل وبين برودة العنب ، فيستخف الشهوان بالخطيئة اعتمادا على التوبة ، كما يستخف الظمآن بالوحل اعتماداً على الغسل ، ولكن هيهات ! لا بد للجرح من أثر . وللتتن الخبيث من ذفر

قال لامنيه :

برّح به أوار القيظ ، وبلغ منه سعار العطش ، فأرسل طرفه في الفضاء ، فرأى في حضيض الأكمة كرما تهدلت أغصانه وتدلت عناقيده . فهفا قلبه من الفرح ، وتاقت نفسه الى بلوغ الكرم لينقع بثمره أوامه ، وينضح بشرابه كبده ، ولكن بينه وبين الاكمة مستنقعا لامناص من خوضه ، وقف موقف الحائر لا يدري أيقدم أم يحجم ؟ فتارة تدفعه حرارة الظمأ ، وتغريه برودة العنب وطرامة الكرم ، وتارة تقعد به وخامة الطين ونتانة الوحل

فلما لاحه العطش سولت نفسه اليه أن المستنقع قد يكون قريب الغور سهل المعبر ، فما الذي يمنعه أن يجرب ما يفعله كثير من الناس ؟ على أنه لا يلوث غير قدميه ، وذلك أذى في جانب ما يبغيه قليل

أطاع هواه واستجرّ لشيطانه ، فوضع قدميه في النقع حتى غاص فيه الى ركبتيه . فوقف مترددا مرتابا يداور الامر في نفسه ويقول : لعل الرجوع أخف مئونة وأحمد مغبة ، ولكن الكرمة وعناقيدها أمامه ، والريق قد عصب من الظمأ فاه . . . فقال في نفسه : أما وقد بلغت ما بلغت فليس من الرأي أن أرجع فيذهب ذلك العناء باطلا ، لا ينبغي بعد هذا أن أكترث لما التي من الوحل قل أو كثر ، فسأعود نقي الجسم طاهر الثوب اذا ما اغتسلت في أول نهر أجده

أمضى على هذه الفكرة عزمه وتقدم ، فبلغ الطين صدره ، ثم عنقه ، ثم شفتيه ، وما لبث أن طم فوق رأسه ، فضاق صدره وحشرجت أنفاسه ، وكاد يصرعه الخُناق لولا أن استجمع قواه ونهض نهضة بلغت به جانب الاكمة

خرج والحمأ المسنون يسيل من أعضائه ، فأكل من الشجرة التي اشتهاها حتى اكتظ ، ثم نظر الى نفسه فاخجله ما رأى من بشاعة منظره وقبح زيه ، فخلع ثيابه وطفق يبحث عن ماء رائق يطهر به نفسه . ويذهب عنه رجسه . ولكن هيهات أن يتم له ما يريد ! انه مهما فعل فان الرائحة الخبيثة باقية تسطع في الأنوف وتدفع في الحلوق

لقد نفدت أبخرة المستنقع في لحمه وعظمه ، ثم أخذت تفوح وتنشر ، فكونت من حوله جواً فاسداً عفناً لا يطيق الصبر عليه انسان ، ولا يستطيع الدنو منه أحد

لقد أراد أن يكون مع الزواحف فليكن كما أراد !